حول أزمة الثقافة العربية المعاصرة

بقلم عدنان ابراهيم

الثقافة العربية المعاصرة في ازمـــة ، يدعوها بعضهم بالازمـــة الكيانيه : هل هناك ثقافة عربية معاصرة أم ان ما ندعوه هكذا لا يتعـدى حدود الصدى ، صدى الثقافات العالمية الحية التـــي نعايش مشاكل الآخرين ، وصدى التراث الثقافي العربي الذي حاكى حيـاة الاجـداد وعايش مشاكلهم ؟

« هذا الشبح الذي أسميه الفكر العربي المعاصر ، أنهمه ، وانـا جزء منه ، بأنه عاجز وجاهل ، لا يعرف احـــدا ، لا العربي ولا غيـــر العربي ،لا يقدر ان يطول احدا لا العربي ولا غير العربي : اتهمه انـه تابع ومسحوق » (١) .

هذا الاتهام العنيف والشامل يوجهه ناقد آخر وكأني بـــه يريـد الاصرار على متابعة الدعوى مع اختلاف ـ على ما يبدو ـ فـــي المنطلق وفي الغاية :

« اني اتهم ثقافتنا العربية المعاصرة بالحيرة والتخلف وانعـــدام الخصائص الذاتية وفقدان القدرة على عناق قضايانا الكبرى » (٢) .

هذا الاتهام بالعجز والانسحاق يوجهه كذلك شاعر معاصر لكـــل الفكر العربي المعاصر يحمل الكثير من الصدق لكنه يجور كل الجور !

« انعي لكم ، يا اصدقائي ، اللغة القديمة
والكتب القديمه
أنعي لكم ..
كلامنا المثقوب كالاحذية القديمه
ومفردات العهر ، والهجاء ، والشتيمه
أنعي لكم .. أنعي لكم ..
نهاية الفكر الذي قاد الى الهزيمة » (٣)

فكر من هو ذلك الذي قادنا الى الهزيمة ؟ مفردات من هي تلـك المفردات العاهرة ؟ واللغة .. والكتب .. ؟

فكرنا الديني الذي ابقانا في الجوامع وحثنا على تشطير الابيات وطلب النصر من الخالق ؟

اذا كان هذا ما يريد قوله نزار الشاعر فقـد اقلقه الاحســاس العميق بالمأساة ،وجعله هو ايضا يجور كثيرا على الفكر العربي المعاصر.

اذا كانت الصلاة من اركان الاسلام فان الجهاد من أعمدة الدين ، وان الذود عن الحمى قد اذكى دائما وابـــدا نفوس العرب المؤمنين : اذكروا صلاح الدين وابحثوا عن جذور الثورة الجزائرية وعـــن أسباب الصمود وعن اسباب الاستبسال .

حتى نعانق قضايا العالم المعاصرة ، علينا بعناق قضايانا ، بالتعرف على ابعادها ومعانيها الحقيقية ، وهذا يكون بنفض غبار الغموض عنهـا وازاحة الحجب والاسرار والطلاسم .

ان ننقد الفكر الديني (١) ، هذا من واجبنا ، لكن من واجبنا أيضا ان نبحث بحرية وموضوعية ، وبعيدا عن التجريح وعن الجلبة وعـــن ترجمة التعابير والنتائج الجاهزة ، من واجبنا ان نبحث عن آثار ذلـك الفكر في سلوكنا وفي تركيب شخصياتنا وفي نظرتنا للحياة وما بعـــد الحياة ، ومن واجبنا ايضا الجري وراء النقد الواضح والبحث عـــن اسباب البناء ، لانه لا يكفي ان يكون النقد صحيحا ولا يكفي ان يكـــون قيما بل يجب ان يملك اسباب التحقيق وان يشير للبديل ...

انه لا يكفيك نصح البدوي بدلق ما يحمله من المياه الكدرة ، بـــل عليك بالاشارة الى المياه الصافية ...

حتى ننقد ما يفعل في حياتنا وما يؤثر على حاضرنا وعلى مستقبلنا من مؤسسات اجتماعية وسواها ، وحتى يأتي نقدنا واضحا ومتماسكا ، منطقيا او جدليا ... يجدر بنا الهبوط من سماء المجردات الـى ارض الواقع المحسوس ـ هذه ايضا فكرة مادية وجدلية ـ لكنها فكرةتكلف الكثير من الجهود والكثير من المعاناة لانها تعني عدم الاكتفاء بالافكـــار المكتملة والمكتفية ، وهي تعني عدم الرضى بكل مـــا قاله الآخرون .. ما قالوه عن الدين والدولة ، وعن انفصال الروح الدينية عـــن الروح القوميـــة وانفصال هذه عـــن الروح الثورية الاشتراكيـــة ومـــا لســـت أدري ...

اذا اردنا دراسة العلاقة ما بين الدين والقومية ، واردنا ان تكون دراستنا علمية وموضوعية بل وتجريبية ، وجب علينـــا دراسة الاسلام والعروبة كقيم ومؤسسات اجتماعية علىضوء التاريخ العربي ـ الاسلامي والاعتماد على مناهج البحث العلمي الحديث واللجوء احيانا للمقارنـــة وغالبا للخصائص الذاتية :

هناك علاقة خاصة ومتميزة ما بين الاسلام والعروبة ، كما ان هناك علاقة خاصة ومتميزة ما بين ايطاليا والكاثوليكية .. بـــل هي عندنـا اقوى واعمق وابعد فعلا في حياتنا وفـــي حياة مؤسساتنا الاجتماعيـــة والثقافية .

---

١ ـ ادونيس : بيان ٥ حزيران ١٩٦٧ . الآداب (٧ ـ ٨) ١٩٦٧ .

٢ ـ محيي الدين اسماعيل : اني اتهم ثقافتنا المعاصرة . الآداب (٣) ١٩٦٨ .

٣ ـ نزار قباني : هوامش .. على دفتر النكسة .

١ ـ أشارة الى كتاب جلال صادق العظم : نقد الفكر الديني .

هذه العلاقة الخاصة مـا بين الاسلام والقومية العربية لا تنفي امكانية التعرض للاسلام بالدرس والنقد والايضاح ، كما انها لا تعني عدم امكانية قيام القوميه العربية على غير الاسس الاسلامية او الدينية، لكنها تعني حاجة الناقد الملحة للرجوع الى الناظم العام المشترك لاوضاعنا الحضارية (الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) وعدم الاكتفاء بالتحليل التجريبي لبعض الاجزاء والظواهر المبعثرة .

حاجتنا للافكار الواضحة والمرتبطة بواقعنا تفرض علينا البحث عن بنى شخصية مجتمعنا العربي الخاصة على ضوء المفاهيم الانسانية العامة .

اتراني بحاجة للتنبيه الى ان هذا لا يعني نقض العقائد الانسانية كما انه لا يعني رفض الاخذ بالمناهج العلمية والعالمية ؟ .ان بعض البلبلة الفكرية في بعض الدراسات التي يصفها اصحابها (بالدراسات الماركسية مثلا) لا تأتي من خطأ في التحليل الماركسي بل من خطأ اساسي يكمن في الاخذ بالنتائج والاكتفاء بترجمة التعابير واحيانا الشعارات المرحلية والمحلية .

لقد كانت مشاكل الشرق هامشية بالنسبة لماركس ولم تشغل الا حيزا ضيقا من وقته ومن تفكيره ، ثم سيطرت على الدراسات الماركسية لقضايا إشراق روح التاريخ الحوادثي ورغبة التحليل السياسي والآني بدل التاريخ الحضاري والتحليل البنيوي كما فعل ماركس بالنسبه للمجتمعات الغربية (١) » .

هذه الناحية الى جانب نواح اخرى ، تجعل من واجب المفكرين العرب الاخذ بالمنهج العلمي الماركسي كمنطلق للتحليل والدراسة وعدم الانغلاق في النتائج المرتبطة الى حد بعيد بالمجتمعات الصناعية الاوروبية .

ما قلناه عن ماركس والماركسية (٢) ينطبق على افكار واشخاص آدم سميث وسبنسر واميل دوركهايم وماكس فيبر وسواهم من علماء الاقتصاد والاجتماع الاوروبيين : لقد انطلقوا جميعا من معطيات الفكر الاوروبي ، ووجهوا معظم جهودهم واهتماماتهم نحو تحليل البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات الغربية ثم استخلصوا قواعد وقوانين ونظريات اسبغوا عليها اعتباطا صفة (العالمية) وهي تعني لدى العديد من علماء الغرب : الاوروبية .

اننا نقول بدون مكابرة جوفاء ، ومن غير دعوة للايغال في مفارات الماضي المجيد ، او دعوة للانغلاق الخانق على الشخصية الاصيلة ... نقول ببساطة اننا ما لم نكف عن اجترار ما يفرزه الذهن الاوروبي ، وما لم نخرج من دور الانفعال باقوال وافعال الآخرين ، فسيظل واقعنا وسيظل فكرنا في وضع التابع والمسحوق ، وستظل صرخة الشاعر تحمل بعض الحوار الى جانب الكثير من الصدق :

خلاصة القضيه
توجز في عباره
لقد لبسنا قشرة الحضاره
واروح جاهلية (٣)

حكيت عن جور النقاد ، واسهبت بالحديث عن النقد الجائر ،ومن الطبيعي ان نتحدث عن جور الاحداث على النقاد وغير النقاد ، وعن طغيان الموجات الدعائية التابعة للسلطان السياسي او للسلطان الاقتصادي او للاثنين معا ... ومن الضروري التعرض لوضع الكتاب المتمادين في احلامهم الملساء الناعمة ، ولوضع الكتاب الغارقين بالتصفيق للانتصارات (التي تروق لهم وتدر عليهم) وللمنقطعين للتأمل السكوني البليد للاحداث وللانتظار الصابر للمعجزات ...

---

١ ـ اهتم ماركس بالقضية الهندية لارتباطها المباشر بمستقبل الراسمالية في بريطانيا ...

٢ ـ تظل الماركسية اكثر علمانية وموضوعية وعالمية من النظريات الاوروبية الاخرى .

٣ ـ نزار قباني

هؤلاء ـ من ذوي الايدي المغرقة في نظافتها ـ يعيشون على هامش الحياة وما يعطونه لاينعدى الصدى وان حسن لايتعدى حدود السراب.

لكن يبقى رغم وجود الهوامش ورغم كل دوافع السخط وكل دوافع الرفض ، ان هذا الاتهام بالحيرة والتخلف وانعدام الذات ، والذي يوجه للثقافة العربية المعاصرة ، كل الثقافة العربية المعاصرة ، جائر كل الجور...ان هذا الحكم بالاعدام يفتقد الكثير من اصول المحاكمة الفكرية ، انه يحتاج الى مستندات اكثر تعبيرا واكثر شمولا ، وهو يحتاج قبل كل شيء للخروج من عالم الاحكام المطلقة ـ احدى سمات الذهن السحري ـ عالم الملاك والشيطان ، الخير والشر ، السماء والارض ، الروح والجسد ، الشرق والغرب ، الرجل والمرأة ...

يعرف العديد من الادباء والنقاد ومن غير الادباء والنقاد ان بعض الخير يكمن في الشر وان بعض الشر ما يتداخل مع الخلايا الخيرة .

ان يكون في ادبنا الحديث الكثير من الاتباع والمرتزقة والادعياء هذا صحيح ، وان يكون في حنايا ثقافتنا المعاصرة الكثير من الغموض والغامضين ، والكثير من الفراغ والفارغين والكثير من الثرثرة ومن التصفيق والتطبيل والرقص على الحبال .. هذا ايضا صحيح، وان يكثر في ثقافتنا المعاصرة النقل على قلة الابداع ، وان تشيع لدى العديد من مثقفينا المعاصرين عادة الكسل الفكري رغم الحاح الحاجة للتفكير الجاد الهادف ، وان يحاكي بعض الكبار من ادبائنا بسطحية وتسطح بعض نزوات الادباء الاوروبيين وبعض طفرات الادب الغربي ... هذا ايضا مما يؤخذ على ثقافتنا المعاصرة .

وان تنزل النازلة على ادبنا الحديث وعلى نافوخ ثقافتنا المعاصرة وان يسرق الحكام ـ ضمن كل ماسرقوه ـ نصف حرية المثقفين وان يتآمر رجال المال على نصف الحرية الباقي ..

كل هذا صحيح ، بل فوق الصحيح .

لكن ، ولاننا لانريد الجود على الينابيع المنبجسة في سهوب واقعنا المرير ، ولاننا لانحب الضرب المتواصل في الصحراء اليباب ، ولاننا نراكض امل البحث بحرية وموضوعية واخلاص عن جذور ثقافتنا الحديثة ... من اجل كل هذا نقول ان في فكرنا العربي المعاصر منارات بقيت تبعث الضوء رغم حلكة الليل الطويل ، وان في ثقافتنا المعاصرة مفكرين وادباء وفنانين حافظوا على قدسية رسالتهم حفاظهم على بؤبؤ العين.

ما الذي نقوله عن الذين خرجوا بثقافتنا من مستنقعات القرون الحالكة نحو مطالع النور او مايقربنا من مطالع النور ؟

كيف ندعوهم وقد كانوا رواد دروب وكانوا طلاب حقيقة وكانوا حماةللناس وللديار ؟!

أنلصق بهم تهمة الانغلاق وقصر الافاق ؟ وقد جابوا بلادهم ، وارتحلوا نحو بلاد الاخرين ، حاكوا الحضارات ، وأمعنوا النظر بنظم العيش ونظم الحكم ونظم التفكير .

أنتعتهم بالسلفية ونجمعهم تحت راية الرجعية وقد اعتقوا عقولهم وعملوا على اعتاقعقول الاخرين من عمارة التقليد الاعمىومن آفة الرجوع الدائم نحو الوراء :

يا قـــوم

وقاكم الله من الشر .. انتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة ، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ، وبداءالحرص على كل عتيق .. فلماذا تقلدون اجدادكم في الخرافات والامـور السافلات ولا تقلدونهم في محامدهم » (٤)

لقد وثب هؤلاء بفكرهم وخيالهم فوق المرحلة الحالكة ، وفوق قشور اليأس وقشور التفاهات ، وثبوا يستنطقون المستقبل ،يستشرفون بالرجاء ، يسكبونه للنفوس العطشى ، ان من دلائل الثقافة ومن شروطها امتلاك قدرة الوثوب نحو المستقبل ، وقدرة الوثوب وقدرة التخطي الواعي للحاضر لا تعنيان الهيام وراء الاحلام الضبابية ،بل تعنيانإتقان قراءة الحاضر بوضوح ومن ثم استخلاص الرؤيا المستقبلية .

---

٤ ـ عبدالرحمن الكواكبي : داء التقليد .

من هذه الزاوية كان رفاعة الطهطاوي وكان عبدالرحمن الكواكبي وكان اديب اسحق مثال المثقف الواعي لشؤون مجتمعه وقضاياه، وكان مثال المثقف العامل للتوضيح وارساء قواعد المستقبل الافضل .

نحن نلهج اليوم بذكر الحرية ونحكي عن محنتها في بلادنا ، ونحن نحكي عن القومية وعن الوحدة القومية ونحن نحكي عن المقاومة وعن حق الشعوب في تقرير المصير ، ترانا نقول شيئا جديدا على ادبنا الحديث ونفتتح معارك لم تعرفها ثقافتنا المعاصرة ؟

« الاستبداد داء ، أشد وطأة من الوباء ، اكثر هولا من الحريق ، اعظم تخريبا من السيل ، اذل للنفوس من السؤال ..

الاستبداد يقلب الحقائق في الاذهان حتى انه قد مكن بعض القياصرة والملوك الاولين من التلاعب بالاديان تاييدا لاستبدادهم ، وقد وضع الناس الحكومات لاجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة » (١)

« قتل امرىء في غابة جريمة لاتغتفر
وقتل شعب آمن مسالة فيها نظر
والحق للقوة لا يعطاه الا من ظفر (٢)

... والنشيد الذي انشده الشباب العربي وهو يعاني من سطوة السلطان ومن شيوع الجهل ومن مطاردة الطغيان لكل حبة نور تلوح في عين باحث عن دروب الخلاص :

لغة العرب اذكرينا واندبي مافات
كيف ننساك وفينا نفحة الحياة
يا بني الشام ومصر وبني العراق
هل نسيتم ذكر عهد طبق الآفاق
كنتم فيما تقضى بهجة الازمان
فلماذا اليوم نرضى حالة الهوان (٣)

كيف نقيم هذه الاشعار التي صارت نشيدا شعبيا ؟ ما الذي نقوله عن القصيدة الصارخة ، اقصد تلك القصيدة التي ارادها الشيخ اليازجي صوتا يوقظ النيام،ونبرة تحرك ما رقدمن شاعر المروءة والنخوة والعزة القومية ؟

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب فقد طمى الركب حتى غاصت الركب

واشعار الذي غادر مكرها وطنه لكنه لم يكف عن محاكاته وعن التزام قضاياه ومعاناة ماينزل به :

العين بعد فراقها الوطنا لاساكنا الفت ولا سكنا
ريانة بالدمع اقلقها الا تحس كرى ولا وسنا
كانت ترى في كل سانحة حسنا فباتت لاترى حسنا
والقلب لولا انه صعدت انكرته وشككت فيه انا
... ياموطنا عبث الزمان به من ذا الذي اغرى بك الزمنا
عطفوا عليك فاوسعوك اذى وهمو يسمون الاذى منا
وحنوا عليك فجردوا قضبا مسنونة وتقدموا بقنا
ياطائرا غنى على غصن والنيل يسقي ذلك الغصنا
اذكرتني مالست ناسيه ولرب ذكرى جددت حزنا
اذكرتني بردى ووادية والطير آحادا به وثنى
ان الغريب معذب ابدا ان حل لم ينعم وان ظعنا
لو صلوا لي موطني وثنا لهممت اعبد ذلك الوثنا (٤)

ترانا ونحن ننشد هذه الاشعار ، نحس حاجة الرجوع الى علم الجمال عند الاغريق او عند هيجل وكروتشه ؟ ام ترانا نحس حاجة المقارنة مع قصائد شعراء اوروبا قصائد الوار وآراغون واغاني اوركا ـ؟

١ ـ الكواكبي : الاستبداد
٢ ـ اديب اسحق : الحق للقوة
٣ ـ نشيد احدى الجمعيات العربية في الشام في مطلع القرن العشرين ...
٤ ـ من قصيدة (وطني) لخيرالدين الزركلي نظمت ايام الإحتلال الفرنسي لسوريا .

اننا نطرق ابواب موضوع شائك ومشوب بكثير من المشاحنات وكثير من الدراسات الموضوعية وغير الموضوعية : الشعر الخطابي ... قصائد المنابر ... شعراء اللفظة المنتقاة .. قصائد القوافي التي تبرق حينا وتغفو في أغلب الاحيان ... ثم قصائد المناسبات ..

وهنا ايضا نحتاج للكثير من الموضوعية حتى لانفرق في ضباب الاحكام العامة ، وحتى لانصير ضحايا تلك (الثنائية) الفاجعة : الخير والشر ، الشعر الكلاسيكي والشعر الحديث ، السلفي المقلد والعصري المجدد ، السطحي والعميق ، شعر الخاصة وشعر الجماهير ...

هذه المقابلة المبنية على احكام مسبقة ومسحورة ، تفقدنا حرية الذهن الناقد ، كما انها تفقدنا روعة تذوق القصيدة بعيدا عن التعقيدات القديمة والحديثة والخارجة غالبا عن المفاهيم الجمالية ، أليس من الافضل والاجمل ان نكف عن خنق القصيدة بكثرة مانقوله عنها وكثرة مانطلبه منها وكثرة مما نلصق عليها من تعاريف هائمة واخرى مقصوصة الجناح واخرى يئن من جورها الجمال الهارب من التعاريف ؟

اذا كان الشعر ذلك الكائن المتحرك والمفاجيء فمن حقنا ان نحار امام تعريف ذلك الكائن : تراه وليد حركة مستمرة ام هو مفاجاة بعد سكينة ؟ أهو تجدد مستمر ام استمرار مجدد ؟

على ابواب يافا يا احبائي (٥)
وفي فوضى حطام الدور ، بين الردم والشوك
وقفت وقلت للعينين :
قفا نبك
على اطلال من رحلوا وفاتوها
تنادي من بناها الدار
وتنعي من بناها الدار
. . . .
احبائي ، مصابيح الدجى ، يا اخوتي في الجرح
وياسر الخميرة ، يابذار القمح
يموت هنا ليعطينا
ويعطينا
ويعطينا
على طرقاتكم أمضي
وها أنا بين أعينكم
الملمها وامسحها دموع الامس
وازرع مثلكم قدميّ في وطني وفي ارضي
وازرع مثلكم عينيّ في دروب السنى والشمس

فدوى طوقان لم تخضع هنا لاوزان الخليل كما فعل الزركلي وكما يفعل بدوي الجبل بكثير من العذوبة وكثير من الغنائية وكثير من الحس الجمالي المعافى من عاهة الاجترار ، لكنها تحافظ على التفعيلة واحيانا على القافية ، وهي تعني بالغنائية ، هذه الغنائية ليست صنوا للطرب او التطريب ، انها قدرة جذب وايحاء وايقاظ والطرب قدرة جذب وتخدير وتنويم ، وهي ، يعني الغنائية ، قدرة تطويع اللغة قصد خلق المناخات الملائمة للموضوع .

هذه الغنائية نجدها في أشعار البحتري والمتنبي وهي تطالعنا طالما تنقل الخطو في حدائق بدوي الجبل التي ترشقنا بالطيب والنور وهي تطالعنا مع عنادل شوقي وامين نخله وصرخات الرصافي والجواهري..

لكنها ـ وهنا المشكلة ـ تشيع في حنايا شعرنا العربي الحديث ، انها تنطلق من شلالات عمر ابي ريشه كما انها تفر كالدوري من اشعار نزار قباني ... وهي ، هذه الغنائية في قلب اشعار نازك الملائكة وبدر شاكر السياب كما انها اغنى ما في قصائد ادونيس الاولى وقصائد فدوى طوقان بل وقصائد شعراء فلسطين الجدد والمجددين .

من هنا تاتي اهمية الفصل ما بين الغنائية وبين الوزن والقافية،

٥ ـ من قصيدة (لن ابكي) فدوى طوقان . الاداب العدد(٤) ١٩٦٨ ،

وهنا يكمن خطر اقامة الجدران حول وبين المفاهيم الشعرية ، لكن السؤال مازال مطروحا :

هذا الشعر ، الشعر الذي نتذوقه ونبحث عن تعريفه ماهو ؟

أهو موسيقى أم تصوير ام محاكاة ؟ أهو نزهة عين أم طفرة حس ام صعود فكر على مدارج فكر معرفة ؟ ام هو رؤيا ؟ تراه يجمع معا كل هذه الخصائص ام ينفرد بواحدة منها ؟

والشاعر ، أين موطن الشاعر ومن أين يصطاد الشعر ؟ تراه يحيا داخل الزمان أم خارجه ام بين بين ؟

والقصيدة ، تراها مجموعة ابيات تربطها وحدة القافية أم هي ثورة على القافية قصد الحصول على وحدة القصيدة من خلال وحدة الموضوع ، ولماذا وحدة الموضوع ؟

نحن نعرف اليوم بان الوزن لايبنى القصيدة ، وان القوافي ،مهما رقت وعذبت ، تظل قاصرة بمفردها عن خلق المناخات الشعرية .

ونحن نعرف اليوم عمق الصلة ما بين الشكل والمحتوى ، اننا نمل القصائد القائمة على التلاعب اللفظي ، نؤخذ بالشعر الذي يختزن تجاربنا الانسانية ، ومن هنا كانت ثورة الشاعر العربي الحديث على قصائد المديح والترجي والتضرع ، يعني ثورته على الكذب والمراءاة :

أصبت بالقرف (1)
منكم ، ومن اشعاركم : ياماسحي أحذية الملوك
ياخنافس الخزف

ان الشاعر العربي المعاصر ، والمثقف العربي بشكل عام ، في بحث دائب عن النبرة الصادقة حيث تتعانق القدرة الفنية المبدعة مع المعاناة الانسانية ، وربما كان هذا رد فعل طبيعيا على قرون التقوقع والتقية ...

لكننا لاندري اذا كان الشعر العربي بامتياز هو ، اليوم ، شعر التوتر الخارق مابين الاطراف ، ففي هذا التوتر علامة الاستقصاء الاغنى والاقصى . وفيه دعوة الى ان يكون الشعر تجربة كلية تتعانق فيها الشهادة بالموت والشهادة بالنطق : تجربة تتخطى تناقضات الفكر والحياة معا ، وتكون بشارة خلاص من الوضع الانساني الميت ، بشارة بنهاية الانسان القديم من اجل ولادة انسان جديد آخر ، يكون الطبيعة وما وراءها ، الحضور في آن (2).

هذه المحاولة في تعريف مايجب ان يكون عليه الشعر العربي الحديث تصلح للتعميم الى محاولة لتعريف مايجب ان تكون عليه ثقافتنا العربية المعاصرة ، لكنها ، وفي كلا الحالين ، تظل محاولة تعريف المثال وفي هذا نوع من الانفصال عن الواقع الحي ومن التعالي ومن الشموخ النيتشوي المطلق .

ان يكون الشعر العربي ، اليوم ، شعر توتر ، وان يكون القلق احد ظواهر ثقافتنا العربية المعاصرة ، فهذا حكم صحيح نكتشف صحته حالما نعود الى انتاج مثقفينا المعاصرين ،انه ظاهرة صحة وعافية ،سيما واننا لم نستورده مع كتب كامو وسارتر وموراڤيا ، بل احسسناه يسري في عروق وجودنا الحي :

انه قلق الانسان العربي الذي يريد الحياة بهويته القومية التي تحرسها وترويها وتنميها ثقافته الوطنية ، لكنه يريد ايضا اعلان حضوره في القرن العشرين ، قرن المدنية التي تقوم على العمل المشترك بين الامم .

هذا القلق المبدع ليس قلق ثقافتنا الحاضرة فحسب ، انه قلق ثقافتنا العربية ابان نهضتنا الاولى ، قلق عبد الرحمن الكواكبي الذي حاكى مؤسسات الشرق ، وقلق اديب اسحق الذي حاكى مؤسسات الغرب ، انه قلق الطهطاوي والبستاني وطاهر الجزائري واليازجي ... قلقهم جميعا يوم بداوا يستنشقون الهواء الطلق ويوم بداوا يتحسسون ابعاد الظلم والجهل ، ويوم اخذوا يستشرفون ارصفة الخلاص ، ويوم بداوا يطالبون بالحرية ويوم عرفوا بان حرية المثقف تعني مسؤوليته امام الحياة .

ثم ان هذا التوتر ، هذا التوتر المبدع ، كان ذلك الاحساس المأسوي الذي عاناه جبران خليل جبران ، آه ، كيف ننسى جبران وكيف نجور على مي زيادة التي عانت من الظلمات والتي طاردت طوال حياتها أشعة الحياة الجديدة ؟!

واما تلك التجربة الكلية حيث تتعانق الشهادة بالموت والشهادة بالنطق ، فهي تذكرني ببيت المتنبي الجميل :

ان القتيل مضرج بدموعه مثل القتيل مضرجا بدمائه

اذا نحن قربناها من الواقع تغدو طلبا بالالتزام ، واذا لززناها نحو الفكر تحولت الى مثالية مطلقة ، انها تتوق لتخطي تناقضات الفكر والحياة معا ..

لكن ماهو الفكر وما هي الحياة ؟ ترانا نستطيع الكلام عن امارة الفكر وعن جمهورية الحياة ؟ أليس الفكر وليد الحياة ، شانه في ذلك شان الفعل ؟

انه الفكر ، على ما أعرف واعتقد ، ممارسة حية ، نشاط اجتماعي يخضع لظروف الزمان والمكان ، ومن هنا ياتي اعتقادنا ، بانه يستحيل على الفكر العظيم ان يصنع وحده القضايا العظيمة ، انه من جملة الاسباب الاساسية لكنه ليس بالسبب الكافي .

لقد كانت افكار مونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو وغيرهم سببا في اندلاع الثورة الافرنسية لكنها لم تكن السبب الاساسي الكافي ،وهكذا بالنسبة لثورة اكتوبر الروسية وثورة الصين وثورات العالم الثالث.

حتى نتخطى حدود الثقافة التقليدية وحتى ننعتق من الفكر القديم ، علينا بالعمل على تخطي الارضية (الاجتماعية ـ الاقتصادية) التي تطالعنا في الثقافة التقليدية والتي ينمو ويترعرع فيها الفكر القديم .

مرة اخرى نقول بان ادباء النهضة العربية قد طرحوا بشكل او بآخر هذه الاسئلة ، وانهم تذمروا مثلنا واحيانا بطريقة افضل واجرأ من طرقنا ، لقد عانوا من الحاح الرؤيا ومن بريقها امام هزال الواقع الساكن وعانوا من تقصير الحاضر السيىء عن اللحاق بالمستقبل الافضل ثم عانوا من سوء الفهم ومن عدمه .

بعد مئة عام ، مازال رجال الفكر العربي في قلب ذات المعاناة ، لماذا ؟ لان الكلمات ، مهما عظم شان الكلمات ، لاتكفي وحدها للهدم وتعوزها العوامل الحياتية الاخرى حتى تأخذ مكانها في البناء .

ما لم نفقه العلاقة الجدلية الوثيقة مابين الفكر والواقع ، فستظل ثوراتنا الثقافية اقرب الى الطفرات الآنية ،التي لا تلبث ان تتحول الى ثرثرة عابثة او توتر حاد يدفعنا الى تغيير تشكيلة الكلمات ..

ان مانريده لثقافتنا العربية المعاصرة ، هو متابعة الدرب المؤدية الى قلب الانسان والى واقعه ، فقلب هذا الكائن يختزن انبل مايصبو الى صياغته الفنان ، ومن واقع هذا الكائن ، من هذا الواقع الانساني تنهل كل الثقافات الحية ومنها ثقافتنا العربية .

باريس

عدنان ابراهيم

1 ـ عبدالوهاب البياتي : اقوال ـ كلمات لا تموت ـ بيروت ١٩٦٠.
2 ـ ادونيس : بيان ٥ حزيران . الاداب .

منشورات دار الاداب
تطلب في
الدار البيضاء (المغرب)
من
مكتبة دار العلم
للنشر والتوزيع
٤٠ شارع الملكي ـ الاحباس
تلفون ٦٢٣٠٩